

## عمر الخيام ورباعياته

- ٢ -

لقد عرف الشرق والغرب ما كان عليه الخيام من ثبات تقدم في الفلسفة وطول الباع في الشعر وكان الادباء الانكليزيين اول من اشداد بذلك في ربيع الغرب ولقد اوردنا في مقالنا الاول ما قاله المؤرخون الفرنسيون وخصصنا بالذكر ما ورد في كتاب «المتلات الرابع» للاستاذ النظامي المروزي السمرقندي وقلنا ان كل من اراد البحث عن الخيام فليرجع الى ذلك الكتاب النيس في باب

اما المؤرخون العرب فقد ذكروه بانته كان امام خراسان واعلم اهل زمانه واكثرهم تعلقاً من علوم الاغريق وأخصها الفلك والفلسفة وكان يقول بضرورة درس التاريخ السياسي على قواعد الاغريق وكان يحاول الوصول الى معرفة الخلق جلت قدرته والشعور بحضريته بواسطة التبريد من ماديات الحياة غير انه كان طليق العقيدة في الاديان

مكنا يقول القنطي المتوفى سنة ٦٤٨ هـ في كتابه تاريخ الحكماء

وقفى على آثاره المشرق النماوي الشهير «هاسر برشتال» المتوفى سنة ١٨٥٦م في كتابه الذي وضعه عن الخيام وترجم فيه ٢٥ رباعية من رباعياته ولقد انتهى به تحقيقه وتحليله في شخصية الخيام الى درجة ان سماه — فولتير الشرق — اشارة الى عدم تدينه ومخالفته دين آباؤه واجداده

\*\*\*

والواقع ان الخيام قد حشرته حياته في احوال كان الدين الاسلامي يراجع فيها الى الزواجر وكثرت فيه البدع فكان الخيام ينظر الى تلك البدع نظرة تنف عن حقد وغيف حاسباً ان اصحاب البدع قوم ادعوا لغيره وكان يرى ان عقنهم وتهدم هذا لم يكن الا احتيالا على البطاء باسم الدين ولذلك ترى آراءه فيهم كلها تنمها جارحا وقولا مرأا ومن ذلك قوله في احدى رباعياته يخاطب صاحب الشريعة الاسلامية ويشكو اليه فعل هذه النطفه وضررها على الدين

«ان الذين جاؤوا بمدك زينوا لك دينك وشوهه ووزر كسوه حتى لو رأيت لانتكرته»

ثم ان ذهابة في العبادة مذهب الفلاسفة الذين يريدون ان يعبدوا الله عبادة تأمل واستغراق في بعد عن الناس ونظر عميق في كل ما ابتدعتها اليد الالهية والتمحيص في ذلك سنة العتلاء الحثيئين كل ذلك ابعد الناس عنه وابعد عنهم وفي نصريجاته الآتية ما يكفيننا مؤونة البحث وطول الطريق

قال ونحمة الله وهو خارج من نيسابور :

« هجرت نيسابور وظني العزيز المشهور باخذال هوائه وعدوية مائه وجمال ربوعه »  
 « فوا حسرتاه على تلك العيشة الراضية وليت شعري ما نهاية تلك الحياة المنعمرة والوجود »  
 « العافية ؟ ما هي الحكمة في خلق الانسان هكذا جاهلاً قاصراً يقف عقله الى هذا »  
 « الحد من الوجود ؟ لقد كنت اعتقد اني سأصل الى الحقيقة باخرة سافرة ولكن اها هي »  
 « قد مرت علي عشرات الاعوام وانا كلما اتقدم نحوها تزداد بعداً عني حتى ارا في »  
 « اري كل شيء اسود واكننا ثقيلاً بارداً فالشر باجسادهم النخمة المنكرة وعقولهم »  
 « الجائدة وقلوبهم القاسية وأجوف فيهم المملوءة بين بالاقذار والاكدار لا يثقلون كثيراً عن »  
 « وحوش الفلا وكل ما في الارض من جمال في الطبيعة لا يساوي عندي جمال حلم »  
 « من تلك الاحلام الهمية المتذبذبة ! »

« ان الانانية كلها في عذاب وشقاء ونزاع وخصام فكيف تنفع حياة الانسان »  
 « اذا كانت قصيرة عن منع ذلك وما هي قيمة المعيشة التي تتم فيها عشرة وثق الوف »  
 « حقاً حتماً ان الحياة لا تساوي ما فيها من هم وعناء والسعيد الذي يشعر نفسه »  
 « سعيداً لا يجد فيها ما يسرى الهم عن نفسه وليس امامه بعد ذلك الا الموت فإنه »  
 « راحة الراحات ! »

أليس هذا جفا صراحاً ؟ !

أليس هذا انصافاً وعدلاً ؟ !

اذالم تسلّم بذلك فاقراً قول ابي العلاء

والدين انصافك الاقوام كلهم واي دين لآبي الحدان وجبا

ثم اذا لم تصف احناك الى قول الخيام نفسه من رباعية

« بشخانده وكبه خانه بندگيست فانوس زدن تروانه بندگيست

حوراب وكيبيا ونيج واصلب حقا كه همه نشانه بندگيست »

ومناه

« ليست هياكل الاصنام وانكبة سوى اما كن للعبادة وما اصوات الاجراس »  
 « الأتيجيح بحمد المنعم في كل شيء فحروب الجامع وناقوس الكنيسة وانكيل »  
 « والصليب كلها في الحقيقة ليست الا اشكالا لحمد الله وعبادته »  
 أليس ذلك هو عين العبادة في اشكالها المختلفة ؟!

\*\*\*

ربما يعذر المؤرخون اذا اعتقدوا ان الخيام ان الخيام في قوله هذا يعني الهيكل والصليب  
 والحراب او غير ذلك من الاشكال المادية أنجته واتخذوا من ذلك ذريعة لاحتقارهم عند  
 العامة واخلاق الناس وما دروا ان الخيام يقصد بذلك الرجوع الى ما هو روحي محض  
 ليس للمادة طريق اليه فهي وسيلة لا غاية ورموز فقط ينظر الرائي وراءها ما هو ابعد  
 واقصى غاية وهو يزعم بذلك الحكماء الذين يطرون على اجمحة من الفللفة والحكمة تبعث  
 عن طرق البشر وتخالف افعالهم

ولست عقيدة الخيام بالرغم عن كل ما قيل عنها الا بين دفتي هذه الجلة البيطة  
 « الطريق لعبادة الله بعدد انفس خلافته »

\*\*\*

ولقد يذ لنا مقارنته بالامام المشهور حجة الاندلس ابن العربي في قوله من قصيدة  
 لقد كنت قبل اليوم انك صاحبي اذا لم يكن ديني الى ديني داني  
 وقد سار قلبي قابلاً كل صورة فرعى الفزلات ودير لرهبان  
 وبيت لا وثالث وكعبة طائف والواح توراة ومصحف قرآن  
 ادين بدين الحب التي توجهت ركائبه فالحب ديني وايماي  
 ومع ذلك فإسلم ابن العربي من نهضة الخيام ؟ !

عابوا على الخيام بأنه كان يتغزل في الخمر وليست الخمر في نظره يا كبر من الحراب  
 والصليب فقد كان قوله فيها فقط لهتك ما وراءها من الحجب وجعلها رمزاً يشرب من  
 رحيق خيالها وبعيد مسأها كل ما في الدنيا من لذات وآلام ولم تكن الخمر قط في نظره  
 كما كانت في نظر الشاعر العربي الجريء الذي يقول فيها

ولو لم تمس الكرم فاضل درها الى الارض لم يسمع لها بالتيتم  
 فلم حرمت يوماً على دين احمد فخذها على دين المسيح ابن مريم

هذه كل نعمة الخيام وهذه هي العنزة الاولى والاخيرة في طريق حياته فلقد كان رحمة الله عدواً لا ينداء بين جلدته شئ عنهم سكاتاً قصياً وعاش في اواخر حياته بعيداً حتى عن الادباء والفلاسفة وكان يزي في الطبيعة وحدها خير اديب ومعلم رقيق فكنت لاتراه الا تحت شجرة او على ضفاف نهر لتقد النار بين جنبيه وقبر مع يوا لامها وتسطك ركة من هول المعركة الوجدانية التائمة بين حنايا ضلوعه وبين الكمال المطلق والحقيقة المحجبة ولم يتركه حساده في هذا الحد من العذاب بل صنفوا عليه في تشويه سمعته بين الناس حتى كان رحمة الله كثيراً ما ينشل بهذا البيت ويراه تلبية له

كل المصائب قد تمر على الفقى فتمون غير شماتة الخيام

\*\*\*

ولقد ورعت الخيام كونه وسعة علمه اخلاقاً قائم بها نفسه الامارة واخصها الى وانفر علمه وكبير عقله وعميق تجاربه فماش بالرغم من ذلك كله سيباً قوي النمود بعيداً عن الدنيا ولم يكن في حياته قطر «كالنرد ده موسىد» او «بل فرلين» او غيرهم من تلكم الجماعة الذين قصوا حياة كلها اشراً وبطراً وتهتكاً وخلاعة

اما علمه فقد اکتسبه بانصيابه على الدرس وانكبايه على البحث والتقيب ولقد ولي ادارة مرصد بغداد فطار ذلك شهرته وبمدينته ونظر ابيه المراقبون نظرهم الى الفيلسوف ابن سينا الذي توفي والخيام في العشرين ربيعاً ولقد كانت الخيام اول عالم رياضي بحث في مقاييس انكبيات واتخذ له فيها مقاييس خاصة ورسائله في الجبر كانت اول رسالة ظهرت من هذا النوع في العربية ولقد انتهز فرصة وجوده في رئاسة المرصد الا انف الذكر ووضع خرائطه الفلكية المشهورة الذي سماها (زيج ملكشاه) نسبة الى ذلك الملك العظيم الذي اسند اليه رئاسة المرصد البغدادي

ووضع حساباً للوقت اسلمح به التاريخ الفارسي باضافة سنة كريمة الى اربع سنوات من سني الحساب الفارسي ويعرف هذا الاصطلاح بالحساب الجلاي نسبة الى جلال الدين وهو لقب السلطان ملكشاه ولقد حازت السنة الجلاية اعتبار علماء الغرب حتى ذهبوا الى انها افضل بكثير من الحساب «الغريغوري» الذي وضع بعد ذلك بحجة قرون وليس من بدع ان تؤخذ على الخيام الاعلاط في كتبه وحساباته فانوقت كان جراً لتدنية ومهداً للحضارة ولم يكن العلم في ذلك العهد الا محافاً في مظنة الابدان

انماي التي واجب والوجود والحياة والاداب والحكمة والاجتماع وما وراء الطبيعة فحدث

عن البحر ولا حرج فلقد ضرب في الجميع بسهم وافر وفوز باهر ونص محور فلسفتي في  
الاجتماع والحكمة ذلك المصراع العربي الفريد

« اغتتم الفرصة بين القدمين »

فاختر والخينات والعبدان ولذة الحياة والطرب والغزل والهوى كتبها الفاظ كانت  
يشتغل بها الناس الى انتهاء النقص واغتنامها ما دامت في متناول اليد ونحت القدم

\*\*\*

اما رباعياته فلقد نقتف امامها حيازي لا دليل لنا ولا نعرف بالضبط عددها الى  
اليوم وفي نسخ الهند وبارس تربي على ٦٠٠ او الالف رباعية ويصعب علينا جداً ان  
تفرق بين الموضوعة والاصيلة ويعتقد كثير من الادباء ان فيها كثيراً شعراء الفرس  
المشهورين كالخواجہ عبد الله الانصاري وابي سعيد ابي الخير والقرطبي والحافظ وغيرهم  
واقدم نسخة خطية من رباعياته كتبت في سنة ٨٦٠ هـ بعد وفاة الخيام ب ٣٤٣  
سنة وهذه النسخة التي راها كاتب هذه السطور موجودة الآن في مكتبة (بودلي) في  
جامعة اكسفورد تحت نمرة خصوصية ٥٢٥ وعدد ازباعات فيها لا يتجاوز سنة  
٢٥٠ رباعية ويعتقد الاستاذ « يوكوسكي » ان ثمانين من رباعيات هذه النسخة للخيام  
والباقيات مختلفات ونظراً لعدم وجود نسخة اقدم منها فلنا نقف امام النكل واحسين

واول رجل عرف الخيام بالانكليز وادرياً كان توماس هيد Thomas Hide

من اساتذة جامعة اكسفورد في كتابه « مذاهب الايرانيين القدماء » Medians  
and Parthians ويبحث فيه عن الرباعيات وصاحبها شيئاً اضافياً ومع كثرة تراجم

رباعيات الخيام لم نستطع ان نعتبر ان ترجمة الشاعر الانكليزي الشهير Fitz Gerald  
فنزجرالد هي التي اطارت شهرة الخيام في انجلترا وامريكا وحازت قصب السبق على  
الكثير من نظيراتها وكان ذلك في سنة ١٨٥٩ وذلك يرجع الى اسباب اهمها ان  
فنزجرالد ترجمها الى الانكليزية شعراً بأسلوب اذيعالي وجد فيه الانجوساكون  
روح « شكبير » و « ملتون » و « سويندون » وغيرهم من الشعراء الانكليز المدودين  
في الطبقة الاولى

ولقد قال « فنزجرالد » بذلك شهرة لا تقل عن شهرة الخيام نفسه وراحت كتبه  
واسعاره ره اجاً باهر وقيل للتأديون من كل صوب وقروا فيها بينهم افتتاح نادي باسم  
الخيام في قلب لندن والنادي فيها الى اليوم مشهور باسم (نادي الخيام)

ونقد ذكره المشرق النساوي « برغنتال » في كتابه الذي ذكرناه في اول الكلام  
وذكره المشرق الفرنسي « غارسي دي تامي » وترجم عشرين رباعية من رباعياته  
ولقد اصاب اللفظ فيهم كثيراً ولم يصب المعنى

وكذلك ذكره « سراوسلى » المشرق الانكليزي وترجم كثيراً من رباعياته  
وذكره « يارتي ديرير » في ( كتابه المكتبة الشرفية او لغتنا العمومية ) ويذهب  
الشاعر الفرنسي الطائر الصيت ( توفيل جوتييه ) المتوفى سنة ١٨٧٢ ان كل الاناشيد  
التي في « عامت » يمكن وجودها بصثرة في رباعيات الخيام

ويذهب ( Ronan ) رونان ان الخيام اول شاعر ظهر في عالم التكون والفساد ويقول  
« ويليم جاكسون » الرحالة الامريكي المشهور واستاذ اللغات الهندية في جامعة كولومبيا في  
كتابه « من القسطنطينية الى وطن الخيام » ( From Constantinople to the  
Home of Omar El Khayyam ) « ان اشعار الخيام في بشت الحان قد ترجمت  
لفظاً ولم يراع فيها مدلولها فجاءت معداً لما تشيعه الناس فيمن الزندقة وحب الاطمان  
وترجم رباعياته الفيلسوف التركي المشهور رضا بك توفيق وصدرها بمقدمة جاء فيها  
« ان الشاعر الالمى ابو الفتح النيسابوري المشهور بالخيام يعد اشهر شعراء الفرس  
على الاطلاق ونقد يكون في بداعة الفاظه ورقة معانيه وجميل حواشيه اكبر قدوة لكثير  
من الشعراء في المشرق »

و يقول اللورد كرزون في كتابه « ايران والمسألة الايرانية » Persia and the  
Question of Persia. عند زيارته لقبر الخيام في نيسابور

« لقد صار عمر معروفًا بواسطة براعة « بترجرالد » وبقية الادباء المحترمين واني  
هنا في مزاره في نيسابور تذكرت واحداً من مترجمي رباعياته كان يؤمل لو اتاح له  
الزمان ان تحمل ترجمته فندفن في مرقد الفيلسوف وقتل في نفسي لو اني استطعت ان  
انفذ وصية هذا المترجم الباسل فاكون قد اهديت اجمل هدية الى هذا النساوي في تلك  
الروضة البعيدة عن ضوضاء المدينة وشعب الانسان هنا في نيسابور ، في وسط الاشجار ،  
في مهبط الشجرى السحري ، هنا في مشرق الرباعيات . واكون بذلك قد اديت من زيارتي !  
السيد مصطفى الطباطبائي ولكن واسماء !